دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الشعر العربي بين التراث الرومانسي والواقعية
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	حسن، حامد
المجلد/العدد:	مج 3, ع 1,2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1973
الشهر:	حزيران
الصفحات:	97 - 103
رقم MD:	282446
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الشعر العربي، الشعر الرومانسي، الواقعية في الشعر ، النقد الادبي، الرومانسية في الادب الغربي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/282446

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

حامد حسن

الشعر العربي
بين التراث الرومانسي والواقعية

لم تترسخ الواقعية بعد نكبة حزيران بل تعاظم المد الرومانسي

التهالك على الأسطورة والرمز والغموض ليس رؤية معاصرة، ولكنه تعبير عن الهروب الرومانسي

عرفت الرومانسية كمدرسة متميزة ذات مفهوم أدبي في الآداب الغربية في الثلث الاول من القرن التاسع عشر ، بعد سقوط الجمهورية في فرنسا ، ونمو البرجوازية .

أسهمت الهزات العنيفة، والكوارث الاجتماعية والاقتصادية في ولادتها ونموها ، فميزت الادب – والشعر بصورة خاصة – بالمظهر العاطفي ، والسرحة الغنائية الهائمة الحالمة ، والنفسية الانطوائية ، والطبيعة الانعزالية ، التي لا تقيم حوارا مع المجتمع والاحداث ، ولكنها تقتصر في حوارها على الطبيعة والذات الداخلية ، وعلى أساس من التهويم والاخيلة والاحلام والتسيب. فهي مشغولة بذاتها عما يجري في العالم الخارجي. مغرقة في « المثالية » والطوباوية ، بعيدة عن الموضوعية ، متجافية عن التدخل في الحدث الاجتماعي . علما بأنها – في منشئيها – تعتبر ثورة على الكلاسيكية ومضامينها البرجوازية الرجعية.

لم تكد الرومانسية تبلغ منتصف القرن التاسع عشر حتى تسرب اليها التمزق، وانشطرت الى عديد من المدارس أطلق عليها – فيما بعد – اسم مدارس « الفكر المثالي » . واهمها : التعبيرية ، التأثرية ، الرمزية ، والفن للفن .

واذا كانت نشأة الرومانسية في الآداب الغربية لا تتجاوز قرنا وبعض القرن ، فانها في الشعر العربي عميقة الجذور ، بعيدة المدى ، تكاد تنسحب على كل العصور الادبية . وتطبعه بطابعها المميز . وتسمه بسمتها الخاصة .

قد يقال : ان الشعر العربي لم يعرف المدارس الادبية في تاريخه القديم والوسيط ، وهذا زعم خاطىء في أساسه وجوهره . فالشعر العربي عرف عديدا من المدارس كمدرسة الشعراء الفرسان ومدرسة الشعراء الحكماء . ومدرسة الشعراء الصعاليك . ومدرسة الجاحظ ، وعبد الحميد الكاتب ، والقاضي الفاضل ، ولكل من هذه المدارس مميزات وخصائص فكرية واسلوبية وفنية .

واذا كانت الرومانسية وليدة النكسات والاحداث الاجتماعية والمظهر النفسي لكل ذلك ، فان البيئة العربية – كما هو معروف تاريخيا – من اغنى البيئات بالمآسي والاحداث الفاجعة ، والنفس العربية – نتيجة لذلك – من احفل النفوس بالالم ، واثراها بالاحزان ، وأخصبها بالمآسي والفواجع ، وهذا هو المناخ الطبيعي لنمو النزعة الرومانسية .

في الشعر العربي القديم والوسيط نجد الذكريات المريرة ، والحنين اللاعج ، وشكوى الزمان ، وبكاء الآثار والاطلال . ومخاطبة الناقة العجماء . كما نجد « التجريد » حيث يعدم الشاعر – احيانا – رفيقا جليسا ، أو صديقا أنيسا ، فيقيم من ذاته ذاتا مجردة وهمية يبثها آلامه وشجونه ، ويفضي اليها بما يعتلج في صدره، ويختلج بين حناياه ، ويعتمل في سريرته .

واذا انتقلنا الى ما بعد الاسلام واستعرضنا التاريخ وجدنا الطابع المأساوي يغلفه ، ورأينا الاحداث تتعاقب ، والنكبات تتلاحق ، والقلق النفسي ، والتمزق الروحي ، والاضطراب الاجتماعي يسود الامة والمجتمع منذ القرن الاول الهجري وفواجعه ، الى انهيار الدولة الاموية ، فنكبة البرامكة ، فاجتياحات التتار والمغول للارض العربية ، فسقوط بغداد ، وضياع الاندلس ، وغزوات الصليبيين ، والاحتلال الاوربي للوطن العربي بعد الحرب العالمية الاولى ، وتقسيم فلسطين ، وحتى نكبة حزيران عام ١٩٦٧ .

سلسلة من المآسي ، والفواجع الكبرى تنسحب على امتداد التاريخ العربي، مكنت للنزوع الرومانسي من التأصل في النفس العربية ، فأعطتنا ألوانا من الزهد الكاذب ، وأغرقتنا بأفانين من التصوف الهارب ، وفنونا من الانطواء على الذات. والهروب من الواقع .

لقد بلغت الرومانسية من النفس العربية

مبلغا عطلت معه طاقاتها وفعالياتها ، وصرفها عن واقعية الحياة، وجمالاتها فانطوت على ذاتها تجتر احلامها وتمضغ آلامهـا ، وتنجحر في ديناميس أوهامها ، وغيران ضياعها .

اليس في شعر أبي الاسود الدؤلي ، وتصوف رابعة العدوية ، وزهد بن ادهم ، وشعر ابن عربي، والفارضي ، ورَبْط الصوفيـة ، واستيحاش الزهاد ، والانقطاع في البيع والصوامع أدلـة صارخة على « هروب » النفسية العربية مـن « الواقعية » بفعل النزعة الرومانسية ؟؟

واذا كان « الهروب » من الواقع ، والانكفاء على النفس ، ودغدغة الاحلام من أبرز مميزات الرومانسية ، أو هو الظاهرة الحادة لما يعتمل في المشاعر ، ويتجسد في السلوك . واذا كان بامكاننا أن نربط كل ذلك ونعيده الى عوامل اجتماعية ، فهناك عامل آخر لم نجد بين كل الذين طرقوا هذه المواضيع من تعرض له الا وهو العامل اللغوي واثره في تشكل النزوع الرومانسي .

في اللغة العربية مايعرف بالكناية، والاستعارة، والتورية ، والمجاز .

فالكناية هي ضد التصريح ـ الصراحة .

والاستعارة هي الباس الشيء ما ليس له .

والتورية ماخوذة من المواراة ـ الاختباء ـ التستر .

والمجاز هو تجاوز الحقيقة الى ما يقابلها .

اليس في المواراة ، وتجاوز الحقيقة ، وعدم الصدق ، والتزيي بما ليس لنا ، ما يكفي دلالة على تنكرنا للواقع ، وتزييف ذواتنا ، والنزوع الى « الهروب » .

ولئن اعتبر القدامى هذه الاساليب ضربا من جمالية اللغة ، واستساغوها ، لما في طبيعتهم من المجافاة للواقع ، فاننا اليوم نتجافى عنها لما في طبيعة حياتنا المعاصرة من الجدية ، والموضوعية ، والواقعية .

والسؤال المطروح الآن : هل اللغة بأساليبها هذه هي التي طبعت النفسية العربية بالطابـع الرومانسي الهارب الجبان ؟؟ أم النفسية العربية في أبعادها التاريخية هي التي ابتدعت هـذه الاساليب الملتوية لما في طبيعتها من التواء ؟؟

وماذا عن الواقعية في الشعر العربي ؟؟

المفهوم المعاصر للادب الواقعي حمل الينـا ـ فيما حمله ـ نوعين من الواقعية : الواقعيـة الثورية ، والواقعية الاشتراكية .

ولكن الواقعية التي تعرّف اليهـا الشعر العربي في تاريخه القديم والوسيط وحتى المعاصر هي واقعية من نوع ثالث ، واقعية لم يشر اليها نقاد الادب العربي ، الا وهي « واقعية الذات » ، لا واقعية المجتمع .

خذ اية قصيدة من الشعر العربي ـ على مختلف عصوره ـ وحاول تحليلها مسترشدا بمبدأ « الباعث النفسي » والعاطفي الذي يتحكم بمنشأ الكلمـة وصيرورتها ، وبميـلاد الصورة وتناميها فانك ستجد أن ضمير المتكلم ـ بارزا ومنفصلا ومستترا ـ يكاد ينتظم غالبية كلمات القصيدة ، ويطغى على مجمل تعابيرها ، ويسيطر على محتواها، وهذا ـ بلا جدال ـ دليل على بروز الذات « الأنا » وطغيان الفردية ، والابتعاد عن « نا » الجماعية لان التحدث بـ « نا » الجماعية ـ الجماعة ـ يخرج الفرد من نطاق «الانا» الضيق، الى عالم الجماعة المتسع .

كما انك ستجد اضافة الاشياء الى « ياء » المتكلم ينسحب ، ويطغى ، وينتظـم ، كل كلم القصيدة ، وهذا بدوره دليل قاطع على النفسية

المستأثرة المنطبعة على الانانية وحب التملك والحيازة والتي تأبى وتنفر من المساواة والمشاركة والتعاطف والايثار .

انها واقعية مستأثرة ضيقة ترى العالم والاشياء في ذاتها ، وتأبى أن ترى ذاتها في العالم .

ويمكن القول : ان الواقعية الاشتراكية عرفت في الشعر العربي ، ولكن على نطاق ضيق ، وعند قلة من الشعراء، هم الشعراء الصعاليك المتمردون الايثاريون الخارجون على مجتمعهم ، وقيمه ، وتقاليده ، هؤلاء الذين أعطوا في تلك الحقبة المبكرة من التاريخ وتحت ضغط ظروف اجتماعية قبلية ، واقتصادية قيما واقعية اشتراكية . وفي طليعتهم عروة بن الورد ، والشنفرى وتأبط شرا ، ويلحق بهم حاتم الطائي وان كان من غير طبقتهم فقرا وصعلكة .

أما الشعر العربي المعاصر فقد اطلع على مدارس الفكر المادي ، كالاشتراكية الثورية ، والواقعية الاشتراكية ، والادب الهادف ، والجبر التاريخي ، والالتزام ، والحتمية التاريخية . وكان من الطبيعي أن يغترف من معين هذه المدارس المرتبطة بمادية التاريخ وجدلية الحياة ، ولكنه وقف مترجحا مترجرجا مبهورا بين الاخذ بتلك العطاءات ، وبين طبيعته التي تحمل تراث التاريخ.

وفي الواقع ان هذه المدارس وان كانت تنبع من أصل واحد فبينها فروق كبيرة وكثيرة تجعل المثقف العربي يتردد أحيانا في ما يأخذ وما يدع من معطياتها .

فالاشتراكية الثورية ، والجبر التاريخي ، وان كان أساسهما ماديا فهما نزاعتان الى نوع من الميكانيكية تتنافى قليلا أو كثيرا مع الواقعية الاشتراكية وقد ترفضها رفضا قاطعا .

والالتزام بمفهومه العلمي والانساني يختلف عن الالتزام السياسي .

ولكن هل الواقعية الاشتراكية ـ كما يرى البعض ـ تجعل من الفكر والادب والعلم مجرد أداة لخدمة الحياة المادية ؟؟

هل تعتبر الانسان كائنا ماديا يساوي جهازا ميكانيكيا مفرغا من الارادة والاشواق والطاقات الروحية ؟؟

والمعروف علميا أن الواقعية الاشتراكية مرتبطة ـ في أساسها العلمي ـ بالمادية جدلا وتاريخا . ولا ترى أن فعل الحركة الطبيعية في الطبيعة مساو لفعلها في المجتمع ، بل ترى وتقرر أن الحركة الاجتماعية ذات فاعلية ارادية في حين أن فاعلية الطبيعة آلية .

وبهذا المفهوم فالواقعية الاشتراكية ذات احتواء لكثير من المقومات القومية والوطنية والنزعات الروحية والطاقات العاطفية . لانها تحتفظ للمرء بالخصائص الارادية من وعي ، وادراك ، وامكانات مادية ومعنوية . فهي ليست مادية الوسائل والغايات بشكل صرف ، ولا نظاما يسحق الفرد سحقا في سبيل الجماعة ، وكل غرضها من الفكر على اختلاف مظاهره ومعطياته أن يكون في خدمة الانسان ، يفجر طاقاته ، وينظم فعالياته ماديا وروحيا ، ويشكل دافعا حركيا زاخما لخلق وابداع ما يمكن خلقه وابداعه من جمالات وخبرات وعطاءات .

انها تعمق الرؤية الانسانية لتمتعها بكنوز الحق والخير والجمال . وتعبر عن أنبل مطامح الفرد والجماعة ، وتعمل لضبطهم ورصد سلوكهم ضمن القوانين العامة لحركة المجتمع .

فهل برزت هذه المدرسة في شعرنا المعاصر كتيار أدبي معبر عن الاتجاه الواقعي ؟

هل تساوقت الخطوات على المستويات السياسية في البلدان التقدمية في عالمنا العربي مع المد الفكري والادب أم تجاوزته ؟؟

في الحقيقة ان التطبيق على الصعيد السياسي تجاوز حدود النظر الادبي ، والتجربة والممارسة الاشتراكية العلمية تجاوزتا التجربة الادبية . مع العلم أن الممارسة النظرية أسهل في مجال التطبيق من الممارسة العملية . وهي متقدمة عليها دائما . وان مانلمسه من بدوات اشتراكية في الادب لاتدل الا على طفولة المحاولة وسطحية التجربة . وتنقصها حرارة الصدق والانفعال اللذين يواكبان الواقع المعاش .

لم تتقلص الرومانسية ، ولم ينحسر ظلها رغم النمو القومي ، والتفتح ، والوعي الاجتماعي ، ولم تستطع الواقعية أن تحتل مواقع الرومانسية ، وتطاردها أو تدحرها . وكان من المتوقع أن نشهد مدا واقعيا عارما بعد نكبة حزيران ١٩٦٧ يرتفع بالشعر العربي الى مستوى ذلك الحدث التاريخي الكبير .

وعلى عكس ما يجب أن يكون شهد الشعر العربي مدا رومانسيا زاخما شمل أكثر البلاد العربية وبسط ظله على كل وسائل الاعلام من صحافة ودور نشر واذاعات. ووجدت الرومانسية في تلك النكسة الكبرى مرتعا خصيبا ، ومناخا ملائما ، وتربة صالحة لنموها ومدها وانطلاقها من مكمنها .

والرومانسية تجد في الاحداث ما تجده الواقعية من ابتعاث ونماء ، وبنفس الشروط الموضوعية ، لان ردود الافعال تكون سلبية ، كما تكون ايجابية بالنسبة للمناخين النفسي والاجتماعي ، فتظهر الرومانسية انطواء وهروبا في الرد السلبي، كما تنطلق الواقعية تحديا وتمردا وثورة في الرد الايجابي .

لقد شاهدنا بعد نكبة حزيران مدا رومانسيا متعاظما في الشعر العربي ، ونزوعا بغيضا الى الاحلام والتهويم، وعزوفا عن الواقعية والعقلانية.

واذا كانت تلك النكبة قد أحدثت زلزالا في الوجدان العربي ، وخلخلة في البنيان النفسي والفكري والاجتماعي فهل يعني هذا أن معطيات الثقافة وعلم النفس الحديث ، والاحداث والتجارب لم تزود شعراءنا ـ والشبان منهم بصورة أخص ـ بنصيب من الوعي تمكنهم من اجتياز المرحلة والتغلب عليها فيتماسكون ولا ينهارون أمام الحدث وزخمه .

ان رصد الاحداث ، وحصيلة متواضعة من اليقظة والوعي تزودان الاديب بنظرة فاحصة عقلانية ، وتجعله يتماسك أمام الحدث والمفاجأة ولكن شيئا من هذا لم يقع بالنسبة للشعر العربي في هذه المرحلة .

لقد أعطت الوراثة كل ما تختزنه النفس العربية من الاستجابة والتقبل والاستسلام للمأساة . وهكذا استطعنا أن نحلل ظاهرة « التهالك » على الاسطورة والرمز ، والهروب من الواقعية ، والنزوع الى الضبابية والغموض و « التعتيم » وتشويش العبارة والاسلوب ، وقلقلة الصورة ، واضطراب الفكرة وتشويه القيم الجمالية تحت ستار الدعاوة الفارغة المكذوبة القائلة بخلق رؤية جديدة معاصرة . وما ذلك ـ كل ذلك ـ الا بعثا حادا للرومانسية الكامنة المستبطنة ذواتهم .

ان المكاذبة وخداع الحس ، وتخدير الوجدان، وتضليل الوعي ، والسير بالحركة الادبية بطريقة « دورانية » ليس الا تكريسا للرومانسية، وتمكينا

للشلل الفكري ، واغراقا في الزمن المتهالك ، وجنوحا نحو « العطالة » .

ان الزمن المتجدد ، والامتداد الصاعد لايعيدان الحركة ـ اية حركة ـ بكل شروطها وظروفها التاريخية والموضوعية ولكنهما يعيدان المشابهة والمقاربة اذا تشابهت الظروف وتقاربت الشروط.

ان الزمن اللاحق يعطينا قيما جمالية واخلاقية واجتماعية تشابه قيما سابقة ، ولكن التاريخ لا يعيد نفسه كما كنا نزعم ونعتقد .

ان ظروفنا التاريخية وما فيها من عوامل الكبت والحرمان والانسحاق لهي التربة المهيأة لنمو العطاءات الرومانسية . ولكن العقلية المنفتحة في الشعوب تستغل بعض خصائص الرومانسية وهي « القلق » وهذه الخاصة تشتمل على عنصري التوتر النفسي والتحفز ، فاذا تمكنت من توجيه هذه الخاصة توجيها أدبيا فقد يخصب القلق ويبدع ، ويسير في حركة التاريخ ، وبذلك تتخلص الامة في أدبها من الحران والتباطؤ ، والانحراف ، والتحجر والكمون .

نحن الآن في دائرة « التجاذب » بين قطبي الرومانسية والواقعية ، اننا في « الدوامة » فاما أن ننزع نحو الحياة ، نحو الواقع ، واما أن نظل في الرومانسية ، وحبس الذات .

واذا كانت طبيعتنا الادبية بما فيها من رواسب الماضي تحاول أن تفرض علينا هذا النوع من « المثالية » فعلينا أن نروض هذه الطبيعة بما لدينا من وسائل الترويض العلمية المعاصرة ، وبما تمدنا به الحياة من زخم الواقعية . ومتى تم لنا الاخذ بالوسائل الصحيحة استطعنا ـ في المرحلة الاولى على الاقل ـ أن نوجد « معايشة » بين طبيعتنا الموروثة ، وبين طبيعة الزمن المعاصر في حدود ذواتنا .

كل انسحاب مثالي أمام المد الواقعي يعتبر هزيمة مخزية ، وتوالي هزائمنا على المستوى الفكري والثقافي هو الذي قادنا الى الهزائم الحضارية وأعطانا هذه الهوية المتخلفة .

وليس من المستحيل ، ولا من المتعذر أن تتعايش « المثالية » بمفهومها المعاصر مع الواقعية في ذاتنا اذا اعتبرنا المثالية واقعا بلغ ذروة الابداع .

قد تكون الواقعية الادبية جافة أحيانا ، فما يمنع من تزويدها بشحنة عاطفية وخيالية ، واغنائها بفيض من الانفعالات الذاتية النبيلة تندي جفافها ، وتعطر مداها وتلون آفاقها .

ويمكن القول : ان المفهوم الواقعي يختلف من بلد الى آخر نظرا لاختلاف البيئة والظروف كما يختلف بين فئة واخرى في البلد الواحد تبعا للمكتسبات الثقافية والتربوية . ولكنه ـ مع ذلك ـ يرتبط بناظم عام يجعل له وجودا موضوعيا في الحدث الاجتماعي خارج الذات الفردية .

العقلانية المحضة تشبه الميكانيكية القرفة فاذا أشركنا الخيال والشاعرية ووهج العاطفة وعنصري التشويق والاستثارة في العمل الادبي لطف من جفاف الواقعية ، ويسر عملية المبادلة بين العاطفة والعقل والوجدان .

وعملية تركيب الحياة الداخلية مع الحياة الخارجية في الادب عملية صعبة جدا ، وقد يختلط علينا أحيانا أن نميز بين ما هو رومانسي من عمل الخيال والعاطفة ، وبين ما هو واقعي من عمل العقل والارادة في العمل الادبي المتكامل . وعملية التركيب ـ خلقا وابداعا ومزجا ـ أكثر

تعقيدا واصعب تركيبا من عملية « الارجاع » والحاق كل تيار عاطفي أو عقلي بمنبعه .

في مجال التلاقي أو التقارب بين الرومانسية والواقعية ينفتح الوجدان على الحقيقة الوضوعية فتصقلها العاطفة ، ويغنيها المضمون .

وليس لنا أن نفرض دائما أن الحقيقة الموضوعية تتجسد حدثا تاريخيا ، أو كائنا ماديا ، فقد تكون تصورا ذهنيا ، وتوقعا عقليا ، ومع هذا « التجريد » يمكننا اجراء علاقة تفاعل بين تصوراتنا وتوقعاتنا وبين الواقع الاجتماعي .

والخلاصة : ان الادب الذاتي التأملي لا يمس المجتمع في علاقاته القائمة الا مسا رقيقا وسطحيا. انه يمعن في الهروب ، والاغراق في المطلق ، والتهويم في الأخيلة ويظل مجردا من المضمون الواقعي . اما الادب المزود بالمعرفة المستمدة من قوانين المجتمع وتطوره وأحداثه ، الغني بالعاطفة ، المكتنز بالوجدان ، المشحون بالانفعالات النبيلة ، الهادف لرفاهية الفرد والجماعة فهو الادب الحق .